العربية قبل سيبويه وبعده *

للاستاذ ابراهيم العريض

اسمحوا لي أن اقرر — في مستهل كلمتي هذه — بكل تواضع ،ما هو عندي في حكم البداهة بالنسبة الى اللغة العربية ، قبل أن أتبسط في الموضوع شرحا وتعليقا :

اولا — ان اللغة العربية التي ظلت تتدارسها الشعوب الاسلامية — قراءة وكتابة — تنقها في الدين وتفكها في الادب ، منذ القرن الثاني للهجرة ، انما هي لغة حضارية مشذبة مهذبة أخذت بها هذه الشعوب الداخلة في الاسلام «من غير العرب طبعا» عن طريق الكتابة والدرس ، وهي تختلف في معاناتها النفسية وملابساتها الاجتماعية ودلالاتها القومية عن لغة البادية التي كان العرب في أوطانهم — بمختلف لهجاتهم — يتحاورون بها على سليقتهم ، ولا زالوا ينعلون ذلك تلقائيا الى اليوم في أنحاء عالمنا العربي . وهي التي حاول النحاة — من غير طائل — تلمس شواهدها في الشعر الجاهلي، واختلفوا في امرها في شعر الفرزدق في صدر الاسلام ، ثم تنكروا لها كليا فيما رأوا من آثارها في شعر المتنبي في القرن الرابع الهجري . فأساؤوا بذلك — الى اللغة والى أنفسهم — لولا العلامة ابن جني الذي تدارك الموضوع ، وكان « عالما » بمعنى الكلمة فوضع لهم حدا .

ثانيا — ان قواعد هذه اللغة التي يتدارسها الطلاب في مدارسهم كما وضعها — ولا اقول استنبطها — النحاة ، لتيسير درس اللغة حسب منطق ارسطو ، هي أبعد ما تكون عن الاحاطة بالشواهد الشعرية والآيات القرآنية التي نحوا يختلف منها في كثير من الاحيان مما وقع معه اصحاب المدارس النحوية في تناقض مع أنفسهم ، ومع معه القول :

تندر بهؤلاء · اضعف من حجة نحوي !

ان غرضي من طرح الموضوع على هذا الشكل هو أن الفت نظركم الى ضرورة اعادة النظر من جديد في هيكل وبناء هذه اللغة الكريمة شكلا وموضوعا ، على غرار ماتم عند سوانا من نقص في مثل هذه الدراسات حول لغاتهم منذ استهل هذا القرن ، وهاقد أشرف الان على نهايته — لان نظل نجتر كالببغاء ماقاله القائلون مناقبل مئات السنين دون وضعه على المحك . فاللغة عند العلماء المعاصرين هؤلاء ، بخلاف ما يريده لها نحاتنا القدماء ، دائبة في التطور غير جامدة ، وما ذلك الا لان المعول في هذه الدراسات اللغوية الحديثة التي يتبنونها هو على اللغة الحية التي يتحاور بها الناس تلقائيا في شتى أمورهم ، لا تلك التي تستبطنها الكتب محنطة كالمومياء . فما يستخلص للغة من قواعد لايجوز بحال أن تكون كبولا يمنعها التنفس والحياة ، كما ظل الحال عندنا الى أمس القريب ، بالنسبة الى الفصحى ، ولا أن تكون قاصرة عن احوالها الدارجة .

والآن نتبسط في الموضوع

اذا عدنا بالذاكرة الى الوراء ابان الفتوحات الاسلامية الاولى الفينا كثيرا من الشعوب والامم تنضوي تحت لواء الاسلام وتسعى جاهدة لتعلم احكام هذا الدين الجديد وتلاوة آيات محكم كتابه العزيز وهو القرآن الكريم، لذا كان لابد لهم من تعلم اللغة العربية .

---

* من الكلمات التي القيت في مهرجان سيبويه بشيراز 1974 .

وهـذا سبب ديـنى . . يضاف اليـه سبب اجتماعى يتجـلى فى الرغبة الـعارمة لدى تلك الشعوب والامم فى السعى نحو التفاهم فى شؤون حياتها اليومية مع السادة الجدد .

ومن الطبيعى أن كـل متعلم للغة لابـد وان يخطىء فى ادائها . . وهذا ما يسمى « باللحن »

واللحن انواع : لحن صوتى فى طريقة نـطق الحروف والكلمات ، ولحن اسلوبى فى طريقة نظام الجملة وحركات اواخر الكلمات فيها .

وهناك لحن آخر نشأ على يـد الذين قرأوا القرآن ولم يكن فى أول امره منقطا ولا مشكـلا . . ولهذا وقـع البعض فى اخطـاء فاحشة فقد قرئت الآية « ان الله برىء مـن المشركين ورسوله » بكسر اللام فى رسوله . . وهذا خطأ شنيع . . وكان الصواب أن تفتح اللام على العطف أو ترفع على الابتداء . . فقام أبو الاسود الدؤلى بمهمة التنقيط والتشكيل ، وكان التشكيل عبارة عن نقطة بـين يدى الحرف أو فوق الحرف أو تحته بلـون مغاير لون الحروف المكتوبة وما استحدث لها من نقاط تمييزا لبعضها عن بعض .

ثم جاء الخليل بن احمد وقام بمهمة التشكيل بالطريقة المألوفة حاليا .

وهكذا قضى على نوع من انـواع اللحن . . وبقيت الاخطاء الصوتية واللغوية والاسلوبية .ومن الملاحظ ان هذه الاخطاء كانت معظمها من الشعوب والامم غير العربية ، لان العرب كانوا ينطقـون لغتهم بالسليقة ؛ كمهارة من المهارات البشرية . . ينشأ عليها ناشىء الفتـيان منهم ، كما هو الحال عند سائر الشعوب فى تواجدها الى اليوم .

وليس معنى هذا أن العرب كانوا لا يخطئون — على مستوى الافراد — احيانا ، لقد كانـوا مثـل غيرهم يخطئون . . الا انها اخطاء قليلـة لا تنقص من شأن قائلها ، هذا اذا اخطأ فى لـغة قبيلته . . لكن لغة قبيلته لا تعد خاطئة اذا قيست الى لغة القبائل الاخرى . . فهذه ليست أخطاء ، انما هى لغة العرب ، تنوعت فى صور ادائها ونحو اسلوبهـا .

وهذا يختلف اختلافا كليا عن تلك الاخطـاء التى وقعت فيها تلك الامم والشعوب غير العربية .

ان الفرق بين ما يسميه النحاة فى كتبهم لحنا ينكرونه فى منطوق العرب) « اخطاء » وبين تلـك التى تجرى على لسان غير العربى هو أن الاولى يمكن تاويلها من خـلال ادراكنا لاسرار اللـغة العربية وتنـوع لهجاتها وصـور ادائها ومناحى اسلوبها ، كما سوف اعرض عليكم من شواهدها بعد ، أما الثانية فلا تبرير لها من خلال واقعنـا اللغوى الذى هو الاساس والفيصل فى المقـارنة والحكـم .

وكان لابد من جمع شواهد اللغـة العربية لوضـع القواعد الضابطة لهـا . . فقام الرواة واللـغويون بعمليـة الجمع ، تـارة على أساس الواقـع اللغوى كما نجـده فى كثير من مسائـل التصريف ، وطورا على أساس احتمالاته كمـا نجده فى الافتراضات النحوية التى لا أساس لها من الواقع ، وشواهد كل ذلك موجودة فى كتاب سيبويه ، ونادرا على أساس الاستيعاب كما فعل الخليل فى كتاب « العيـن » ، حيث استخـرج الكلمات كلها مـن اصلها الثلاثى ثم اسقط المهمل منهـا .

واحس العلمـاء بالفرق بين بعـض اساليب اللغة المنطوقة وبين كونها مكتوبة ، فبعض الرموز اللغوية قاصـرة عن مستوى الاداء الصـوتى ، ولان الكتابة العربية فى أحسن احوالها ليست الا اختزاليـة ولا يمكن أن تعطى صـورة معبرة عن منطوق الناس ، كما نجده بدقة أكثر عند سوانا . ففى اللغة السنسكريتـية مثلا لنطق الالف بكـل امالاتها أكثر من ثمانيـة أشكال معبرة ، بينمـا لا يتعدى الالف عندنـا شكله الواحـد رغم كثـرة الامالات ، كما هـو واضح فى بعـض القراءات القرآنية أو لهجات القبائل . وهذا ادى بدوره الى نشأة كثير من المباحث الصوتيـة ، نجد بعضهـا واردا فى كتاب سيبويه ، مما ادى عند بعضهم الى اشكالات كثيـرة .

وكان لابد من تيسير اللغة للاعاجم رغم كل هذه الاشكالات . فتعمد سيبويه الى استنباط قواعد نحوه وصرفه على أساس الاغلبية دون أن يحددها (وقد أنكرت عليه ذلك مدرسة الكوفة) ، وطالب بالقياس عليها ، واعتبر كل اسلوب عربى خـارج عليها شاذا أو لغية يجب اسقاطها من اللغة العربية كتابا وحديثا . وكأنـما كان يريد أن يضع قواعـد

تعليمية ميسرة قد تصلح لغير العرب ، كما نفعل نحن حين ندرس قواعد لغة اجنبية فلا تنتهج منها غالبا — بادىء ذى بدء — الا كل ما هو خاضع للقياس، او هكذا تفعل الامهات مع أطفالهن الصغار . ولكن هذا ليس بوارد عند ما يشب الطفل عن الطوق ، فيلغط فى لغته مثل ذويه ويحسنها احسانهم فيها يتقلب فيه من ظروف حياته الخاصة . وهنا يكمن فى نظر الكوفيين خطأ سيبويه حين اراد ان يخضع لغة العرب المنطوقة ويلوى عنقها وفق قواعده ذات الهدف التعليمى .

فالكسائى احد المتخرجين من مدرسة الخليل — مثل سيبويه — واحد القراء السبعة المشهورين لم يعجبه هذا التجنى على اللغة . فقد نظر فوجد بعض الآيات القرآنية لا تخضع لاقيسة النحاة ومنطقهم المتشدد ، وكان يتسلح بوازع دينى متين أبى عليه ان يعتبر تلك الاساليب شاذة ولا يجوز القياس عليها ، بل اعتبرها صحيحة كصحة الاساليب القياسية التى ارتضاها النحاة .

وقد مضى على نهجه الكوفيون من بعده حرصا على سلامة اللغة .

وتحضرنى هنا المسألة الزنبورية التى اختلف عليها العالمان ، فى قولهم : كنت اظن الزنبور اشد لسعة من النحلة فاذا هو هى او فاذا هو اياها . فقد قال سيبويه بالقول الاول ، واجاز الكسائى القول الثانى ، ومضى على خلافهما النحاة الى اليوم . وهذه العبارة لا تقوم لذاتها فانما هى عينة لامثالها ، وما اجاز الوجهين — كما اعتقد — الكسائى الا لان العرب تقول بهما معا .. والى اليوم .. ولكن فى ظرفين مختلفين . وبيان ذلك عندى انك اذا كنت تنقل هذه التجربة نقلا غيبيا عن سواك فما لك معدى عن القول « فاذا هو هى »، اما اذا كنت تتحدث عن التجربة وقد عاينتها بنفسك فعندها لا يصح الا أن تقول « فاذا هو اياها » دلالة على معاناتك الحاضرة لها .

ان ما اعتبره سيبويه ومن اتبعه من مدرسة البصرة أمثلة شاذة أو لغات أو لغيات لا يقاس عليها يمكننا ان نستشف منها ابعادا معنوية وذوقية خفيت على الاعاجم ومن استعجم من العرب . ومما اكثر هذه الشواهد الشاذة عندهم .

فقد عد سيبويه لغة « اكلونى البراغيث » منها ، وقال بعدم القياس عليها لانها تخالف القاعدة المطردة . ولو كان القول شاذا غريبا لانقرض منذ زمن طويل ، مع ان من الملاحظ انه مستعمل الى حد كبير فى كل مكان من الوطن العربى . وهذا يعنى ببساطة انه أسلوب عربى خالص فيه سر لم يهتد اليه النحاة الاولون .

ففى قولنا « اكلتنى البراغيث » — كما ترى — ينصب الاهتمام على البراغيث الفاعلة ، ويكون تمام القول « فانقض عليها ترحنى » . اما فى قولنا « اكلونى البراغيث » فانما ينصب الاهتمام على حدث الاكل ذاته دون البراغيث ، ويكون تمام القول هنا « فانتفنى منها » . فهذا الاسلوب الثانى أشبه ما يكون بالبناء للمجهول على غرار قولهم فى الانكليزية :

I have been Pestered by mosquittoes.

وله شواهد من القرآن قوله تعالى : فاسروا النجوى الذين ظلموا .

ومن الحديث قول النبى صلى الله عليه وسلم : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

ومن الشعر قول ليلى العفيفة (زوجة البراق):

غللونى ، تيدونى ، ضربوا
ملمس العفة منى بالعصا

ولم يسىء ، الى لغة الضاد شىء مثل «نظرية العامل» ، التى جاء بها نحاتنا لتعليل الامور . وكان باب التنازع وباب الاختصاص وباب الاشتغال مهزلة المهازل لدى تطبيقها على لغة الناس . ووصل الحال ببعضهم الى تلمس الاخطاء — بمقتضاها — حتى فى شعر المتنبى ، وذلك بعد قرنين من وضع قواعدهم ، فى مثل قوله :

انا الذى نظر الاعمى الى ادبى
واسمعت كلماتى من به صمم

وقوله :

وانى لمن قوم ... كان نفوسنا
بها انف أن تسكن اللحم والعظما

وقوله :

لولا مفارقة الاحباب ما وجدت
لها المنايا الى ارواحنا سبلا

وفاتهم أن يدركوا أنه كان فى الاول يجيب على السؤال « من أنت ؟ » . . لا على السؤال « من الذى نظر الاعمى الى أدبه ؟ » ، وفى الثانى كان يعتبر الحكم ساريا عليه كسريانه على قومه ، لا ساريا عليهم وحدهم دونه ، وفى الثالث لم يكن تخطئتهم له الا لمجرد تطبيق ما وضعوا من نظرية فى الضمير العائد الذى لا يتقدم على اسمه ، وان خالفهم الواقع لا فى لغة العرب وحدهم بل فى جميع لغات الناس .

وخلاصة القول ان بين اللغات الانسانية نوعا من وشائج القربى وصلات النسب ، وعلى المهتم بلغة الضاد أن يسلح نفسه بثقافة اجنبية مستفيده حتما فى نظرته الى لغته القومية وتفهم أسرارها .

وان هذه القواعد التى وضعها سيبويه لم يقصد بها أن يجنب الاعراب الخطأ فى لغتهم وانما كان الغرض منها أن يجنب الاعاجم اللحن ، وفى سبيل تيسيرها وقع فى تناقض كثير ، لانه اراد أن يقومها بالمنطق .

وان قواعد اللغة — عند وضعها — لا يمكن أن تكون غاية فى حد ذاتها ، ولو انصف النحاة لاعتبروها وسيلة لفهم أسرار اللغة ، حتى فى كل ما جاء على وجهين من باب الجواز ، كما فى قول أم عقيل وهى ترقص طفلها :

انت تكون ماجد نبيل اذا تهب شمال بليل

لا مجرد الاكتفاء بالقول « ان (تكون) هنا زائدة » فهى قد خصته بالصفتين فى حاضره وفى مستقبله خلفا لابيه .

وان اللغة المنطوقة تلقائيا هى الاصل فى تفهم اللغة واستنباط قواعدها ، لانها تظل حية ابدا ، كما توصل الى تقريره العلماء المحدثون فى دراساتهم اللغوية .

واخيرا انا اومن باختلاف اللغات عند العرب، واعتبرها كلها حجة ، كما ارى ان ما جرى على نسق كلام العرب فهو من كلام العرب . . قياسا او شذوذا . . ولا يجوز أن يتحكم المنطق الذى مجاله الفلسفة فى اللغة التى ميدانها الحياة .

والسلام عليكم
البحرين ، 1974/7/24 .

ابراهيم العريض